إحدى ضحايا الرئيس

شـــيـــار نـيّـــو*

لن يَخْطر ببالِ أغلبِ مَنْ يشاهدون استقبالاً رئاسيّاً، مأخوذين إمّا بأهمية المضيف وضيوفه أو بالتعليق التلفزيونيّ على هذا الحدث الهامّ، أن ينتبهوا إلى نظافة المكان المبالَغ فيها. لكنّ خطيبتي تتابع نشرات الأخبار لهذا السبب فقط، وباللهفة التي تتابع بها رفيقاتُها برامجَ المسابقات. إنّها تَعْشق تلك الأنباءَ التي تبدأ بـ «استقبل» و«ودّع» في نشرة الثامنة والنصف؛ ومَن حسن حظّها، كما تعتقد، أنّ الأخبار المحلية تُتْلى في بداية النشرة، فلا تضطرّ إلى أن تتحرّق طويلاً قبل أن تكحّلَ عينيْها بلمعانِ الأرضيةِ الرئاسية وهفهفةِ السجّاد الرئاسي.

كان على سناء، بعد أن غادرتْ والدتُها قبل سنوات عدة، أن تترك المدرسةَ لترعى والدَها وإخوتَها الثلاثة. وحين أقول «كان عليها،» أعني أنّ الأب الوفيّ لذكرى زوجته، والذي كان آنذاك «ضابطًا مهمّاً» في القصر الجمهوري، أَوْكل إليها مهمةَ أن تكون ربّةَ بيتٍ وهي لا تزال طفلة. لكنّه بعد أن تقاعد، أصدر فرمانًا آخر بضرورة عملها خارج المنزل أيضًا، كي تعينه في مصروف البيت إلى أن يتخرج إخوتُها ويتقلّدوا مناصبَهم الرفيعة، إذ إنّ راتب التقاعد لا يكاد يكفي ثمن متّته وسجائره. (لن تحبّ خطيبتي، بالطبع، أن أروي الأمرَ على هذا النحو، لكنني، بصراحة، لا أستطيع كبحَ جماح غضبي حين أتذكّر كم تضحّي من أجل هؤلاء الذكور الأغبياء. على أية حال، تلك ليست قصتَنا؛ أردتُ فقط أن أعطيكم لمحةً عن واقع حياتها المرير).

يجب أن أقول لكم أيضًا إنّ سناء فتاة حالمة؛ وهي، كأيّة فتاة في عمرها، تَحْلم أحلامًا جنسية كلَّ يوم تقريبًا. يمكن أن تخمّنوا، أنّ فارس الأحلام ذو ملامح مثالية جمّعتْها من آلاف الوجوه التي مرّت عليها، في حياتها هذه أو في حيوات سابقة. ومع ذلك، يَحْدث أن يكون شريكُ الحلم أحيانًا أحدَ الذين تَعْرفهم في حياتها الواقعية: ابنَ الجيران، مثلاً، أو ابنَ خالتها حسن. بيْد أنّها، في اللحظات الهاربة من رقابة أبيها العسكرية، حين أُقبّلها على شفتيها، تقول لي إنّها لم تعد تَحْلم إلاّ بي، فأقول لها إنّي لا أشبه فارسَ أحلامها في شيء، فتقول، بضحكة طفلة لا تَمْلك إلاّ أن تصدّقها، إنّي الآن فارسُ أحلامها.

كلُّ هذا سبق أن حدّثتني عنه خطيبتي مرارًا، وقد وصلنا الآن إلى مرحلةٍ صرنا نتصارح فيها بكلّ شيء، حتى أكثر الأسرار خصوصيةً. أما ما لم تخبرني به قبل اليوم فهو حلمُها المجنون، المجنون حقّاً، الذي ما فتئ يتكرر منذ أن بدأتْ تعمل «لفّايةً» في القصر قبل أشهر.

❖ ❖ ❖

فعلى مرّ الليالي والأحلام، نسجتْ سناء سيناريوهات كثيرةً عن كيف يَلْمحها سيادةُ الرئيس وهو يَعْبر الدهليزَ أو يَهْبط الدرجَ؛ وكيف يراوغ مرافقيه لينفردَ بها... لكنّ جميع هذه الحبكات ينتهي دائمًا إلى النهاية السعيدة ذاتها: سرير وثير في مخدع سرّيّ من مخادع القصر. وحين يبدأ فكرُها بالتدخل، تقول لنفسها إنّ هناك الكثير من القصص المماثلة عن رؤساء ومسؤولين كانت لهم علاقاتٌ غراميةٌ مع موظفاتهم ـ ألا تَذْكر مونيكا لوينسكي؟ صحيح أنّ حلمها قد يمتدّ أحيانًا إلى الرغد الذي تَنْعم به جرّاء علاقتها بأهمّ شخص في البلد، لكنّ المشاهدَ الأساسية تبقى التفاصيلَ الجنسية. ورغم أنّها تتردّد عادةً في التحدث عنها مراعاةً لمشاعري، إلاّ أنّي أستطيع أن ألمس ذلك من طريقة وصفها لغريمي الحُلُميّ هذا:

إنّها تَعْشق قامتَه الطويلة، أناقتَه، رجولتَه، نظراته ولمساتِه الحنونةَ. تقول إنّ الجميع يعرف الرئيس قويّاً، ذكيّاً، سياسيّاً بارعًا، وما إلى ذلك، لكنّها **وحدها** تَعْرف أنّه رائع في السرير كذلك. وفي بعض الصباحات، حين يمتدّ الحلمُ إلى أحلام اليقظة الناعسة، تداعب نفسَها وهي تتخيل عشيقَها السرّيّ: «رئيس بكل معنى الكلمة،» تقول أخيرًا وهي تتمطّى في الفراش قبل أن تنهضَ إلى المطبخ.

❖ ❖ ❖

* ـ كاتب وصحفي سوري مقيم في بريطانيا.

سناء ـ والحقّ يقال ـ عاملةٌ متفانية، ليس لأنّها تخاف عواقبَ التقصير في عمل حسّاس كهذا وحسب، بل لأنّها تعتقد أنّ نظافة القصر فخرٌ وطنيّ. من واجبنا، تجادِلُ بكل جدية، أن نقدّم للأجانب صورةً لامعةً عن الوطن؛ ذلك جزء لا يتجزأ من سياستنا الخارجية. وبكل سذاجة، تتخيّل أحدَ الضيوف يُثْني على نظافة الأرضية أو ما شابه (عليّ أن أعترف أني بالكاد أتمالك نفسي من الضحك حين تَخْبرني عن أفكارها هذه، فهي ليست ممن تستطيع جرحَ مشاعرهنّ).

لن أستهين بذكائكم وأخبركم أنّ سناء ليست عاملةَ التنظيفات الوحيدة في القصر؛ فثمة العشرات من الفتيات والنساء والرجال المسؤولين عن هذا البريق الرئاسي الدائم. إنّه عمل يوميّ لا يتوقف، لاسيّما حين يكون واضحًا من الحركة أنّ هناك ضيفًا ما قادمًا قريبًا... كما كانت الحالُ ظهيرةَ ذلك اليوم المشؤوم.

كنتُ، كالعادة، أَمْسح المرّات والدرجَ في الطابق الأرضي، حيث قاعةُ الاستقبال الرئيسية والكثيرُ من الأبواب الأخرى التي لا أعرف ماذا يوجد خلفها. جفّفتُ الرخامَ، بعد ذلك، صفّاً صفّاً ـ فهذه هي طريقتي المفضّلة في المسح. الله وحده يَعْلم كيف تُركتْ تلك البقعةُ المبلّلةُ حيث زلّتْ قدم الرئيس. لا، لم يسقط ـ والحمد لله ـ لكنّه كاد. تخيّل الإحراجَ أمام الضيوف! كان كلُّ ما فعله سيادتُه، لحظتَها، هو أن التفت إلى مسؤول الأمن ورمقه بنظرة بعثتْ في أوصاله رعشةً لن ينساها طوال حياته؛ رعشةً انتقلتْ عبر كلّ المراتب الوظيفية وصولاً إلى «اللفّاية» المسكينة، التي لم تُجْدِها دموعُها وتوسلاتُها في إنقاذها من كل الرعب الذي تلا ذلك. أكّدتْ لهم ألفَ مرة أنّها جفّفت الأرضيةَ مرتين، كما تفعل دائماً، لكنْ... آه، لو تستطيع إخبارَهم أنّها لا يمكن أن تفعل ذلك بسيادته، ليس لأنّه رئيس فقط، بل لأنّها...

كانت تلك المرة الأخيرة التي حلمتْ فيها سناء بسيادة الرئيس، كما كانت آخرَ مرةٍ مسحتْ فيها الرخامَ الرئاسي.

لندن

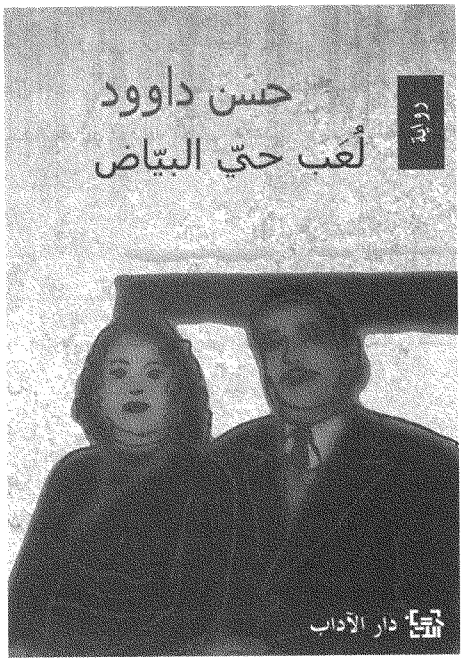

ربّنا، سبحانه وتعالى، أعطى لكلّ مخلوق شيئًا يحمي به نفسه. أعطى البقرة قرنين لتنطح بهما كلّ من يأتي ليؤذيها. وأعطى النحلة إبرتها التي تؤلم حتى أكبر الأجسام. وأعطى القطّة مخالب، والجروة أنيابًا... اللّه سبحانه أعطى لكلّ مخلوق من مخلوقاته شيئًا يحمي به نفسه، إلاّ أنا، فقد خلقني هكذا بلا مخلب ولا إبرة ولا شوكة.

حسن داوود روائي لبناني. صدرت له روايات عدّة، كانت أولاها بناية ماتيلد. كما أصدر مجموعتين قصصيتين. تُرجمتْ أعماله إلى لغات عدة. ويعمل الآن مديراً لتحرير ملحق «نوافذ» الصادر عن صحيفة المستقبل.